

# الله والإنسان في الشعر الجاهلي

د. عبد الشفي زبوني

١٥٠ لقد عكس الشعر الجاهلي صورة الإنسان العربي في كل منحى من مناحي حياته ومعاشه. وفي كل حالة من حالاته النفسية والشعورية. كما أبان عن مواقفه من قضايا الحياة والوجود. فأضحى بذلك السجل الأمين الذي حمل إلينا تفكيره وسبيله وتوازعه. وإذا كانت أعراض الشعر الجاهلي وموضوعاته التي درج عليها الشعراء لم تدغ حيزاً رحباً للتحليق في عالم الألوهية والتأمل في ذات الله وصفاته. فإنها لم تغفل ذلك إغفالاً تاماً. وإنما انطوت على إشارات كثيرة تؤكد أن الإنسان العربي كان مقتنعاً بوجود الله الكبير المتعال اقتناعاً كاملاً. ولم يؤثر في قناعته ما كان من وثنية تشكك في وحدانية الله. وتشرك الأوثان والأصنام معه في العبودية.

## ● تاريخ الاعتقاد في الله

قبل البدء في البحث عن الأشعار التي عرست لاعتقاد الإنسان العربي في الله لابد من معرفة شيء عن تاريخ هذا الاعتقاد، ذلك أن المطلع على أخبار العرب الجاهليين يجدهم جميعاً يقرّون بوجود الله. ويقولون بأنه الإله الكبير للكون والكائنات. ويبدو أن هذا الاعتقاد كان لديهم منذ أمد بعيد. يؤكد ذلك مؤرخو العرب القدماء. كما يؤكد أيضاً القرآن الكريم، فقد ورد أن العرب. منذ أقدم أزمنتهم. كانوا يعتقدون في إله كبير يدير الكون. ويتحكم في الكائنات. وكلما انحرفوا عن الإيمان به. واتخذوا معه آلهة أخرى. ظهر بينهم أنبياء. ورسّل دعوا إلى نبذ عبادتها والعودة إلى عبادة الله الواحد

وهذا ما كان عليه قوم عاد بأحقاف اليمن حين اتخذوا الأوثان أرباباً من دون الله. فانبرى هود، عليه السلام، يُسَفِّه عبادتهم، ويدعوهم إلى توحيد الله<sup>(١)</sup>. وكذلك كان شأن قبائل ثمود، التي كانت تنزل بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، فقد أرسل إليهم صالح، عليه السلام، ليدعوهم إلى عبادة الله الواحد، وترك ما عداه من الآلهة<sup>(٢)</sup>.

ويجئ إبراهيم، عليه السلام، إلى الحجاز، وبناؤه بيت الله الحرام، ونبذ كل ما يشكك في وحدانية الله، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ العرب القدماء الذين دأب قسم من أسلافهم، حتى الإسلام، في الإشادة بإبراهيم الخليل على أنه هو الذي جلا فكرة الإله الواحد<sup>(٣)</sup>.

كذلك يرى فريق من الباحثين في تاريخ العرب والساميين أن معرفة الله قد انحدرت إليهم منذ زمن بعيد، ويؤكدون أن الله عند الجاهليين هو «إيل» الذي كان الإله المشترك للساميين القدماء، كما أنه هو «الله» الذي كشفت عنه النقوش الثمودية والصفوية في شمال الجزيرة العربية<sup>(٤)</sup>. ولعل ما يرجح رأي هؤلاء الباحثين أن لفظ «إيل» لا يزال في العربية يدل على الله، فقد ورد أن كل اسم آخره «إيل» مضاف إلى الله تعالى<sup>(٥)</sup>.

ويبدو من أخبار العرب القدماء أنهم، بعد عهد إبراهيم عليه السلام، عادوا إلى الإشراك مجدداً واتخاذ الأوثان آلهة وأرباباً، وقد انتشرت تلك العبادة بينهم انتشاراً واسعاً، حتى إذا بلغنا العصر الجاهلي وجدنا كثيراً من العرب، وفي الحجاز خاصة، يتعبدون لأوثان متنوعة، لكنهم، على الرغم من ذلك لم يغفلوا عن الله، بل كانوا يزعمون أنهم يعبدونها لتقريبهم إليه زلفى<sup>(٦)</sup>. وكذلك ظلوا متمسكين بشعائر من ديانة إبراهيم التوحيدية كالحج إلى الكعبة بيت الله الحرام، والعمرة، وإهداء البدن، وغير ذلك<sup>(٧)</sup>.

وقد ظهرت في العرب الجاهليين فئة دعت إلى توحيد الله وتنزيهه عن الإشراك، وأعلنت أنها لا تزال على دين الله إبراهيم الخليل، وأنها تؤمن مثله بآله متفرد بالعبودية. وهذه الديانة هي الحنيفية، والذين دعوا إليها سمووا الحنفاء<sup>(٨)</sup>. وقد برز منهم شعراء عبروا عن اعتقادهم في أشعارهم، أمثال أمية بن أبي الصلت<sup>(٩)</sup>. وأبي قيس بن الأسلت<sup>(١٠)</sup>. وزيد ابن عمرو بن نفيل. ولعل في قول الأخير ما يوضح اعتقاد هذه الفئة في الله الواحد، منزهاً عن الإشراك بأبرز الأصنام التي تمبذ لها الجاهليون، وهي اللات والعزى وهبل<sup>(١١)</sup>.

أرباً واحداً أم ألف ربٍّ      أدينُ إذا تقسّمتِ الأمورُ  
عزّلتُ السّلات والعرّى جميعاً      كذلك يفعلُ الجُلْدُ الصّبورُ  
فلا العرّى أدينُ ولا اهتبيها      ولا صنمِي بنسي عمرو أزورُ  
ولا هبلاً أدينُ وكان ربّاً      لنا في الدّهرِ إذ حلّمني صغيرُ

وفضلاً عن الوثنية والحنيفية فإن العرب قد عرفوا اليهودية والنصرانية، وكانت النصرانية أكثر انتشاراً بينهم لطابعها التبشيري<sup>(١٢)</sup>، على حين ظلت اليهودية وتعاليمها مقتصرة على بعض القبائل التي تعيش قرب يثرب<sup>(١٣)</sup>. ومن المعروف أن الديانتين تدعوان إلى عبادة الله رب الكون والكانات.

### ● وجود الله ومقدرته :

إذا عدنا إلى الشعر الجاهلي، باحثين عن اعتقاد الإنسان العربي في الله، فإننا نجد معظم الأشعار التي ذكرت الله تدل على أن ثمة إقراراً بوجوده من العرب جميعاً، على مختلف دياناتهم. وتدل على أن رؤيتهم كانت مشتركة لمقدرته الفارقة التي لا تعلوها أية مقدرة، ولا تضاهيها أية قوة.

وما يغلب على الظن أن الاختلاف بين ديانات العرب إنما كان في النظرة إلى ذات الإله<sup>(١٤)</sup>، أما الاعتقاد في مقدرة الله، وتنوع تلك المقدرة ومداها، فإنه كان، في الغالب الأعم، مشتركاً لديهم. ومن هذا المنطلق يمكننا تحليل بعض الأشعار التي أشارت إلى اعتقاد مزدوج في الله سبحانه وتعالى سواء أكان بين النصرانية والوثنية أم في الوثنية نفسها بين الله عز وجل والأوثان. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فمن ذلك ما مجده لدى عدي بن زيد النصراني من قسم بالله رب المسيحية ورب الكعبة الذي يؤمن به الوثنيون المشركون<sup>(١٥)</sup>،

سمى الأعداء لا يألون شراً      عليّ، وربّ مكة والصليب

وكذلك نرى الأعشى الذي كان مشركاً يقسم بالراهب والكعبة، وهذا ما يشير إلى أنه اعتقد أن الله واحداً في كلتا الديانتين الوثنية والنصرانية<sup>(١٦)</sup>

فإني وثوني راهب اللّجّ والتي      بناها قصيُ والمضامن بن جرهم<sup>(١٧)</sup>  
لئن جدّ أسباب العداوة بيننا      لترحلنّ مني على ظهر شيّهم<sup>(١٨)</sup>

ولم تكن الوثنية التي كان يدين بها معظم الجاهليين إلا إشراك الله بالأوثان، واعتقاداً مزدوجاً فيهما، كما تؤكد لنا ذلك بعض الأشعار، ونسرب عليها مثلاً، قول خدّاش بن زهير في حلف جرى بينه وبين شخص آخر، كان قد نقض العهد وغدر به<sup>(٢٩)</sup>،

وذكرته بالله بيني وبينه وما بيننا من مدة لو تذكرنا

وبالمروة البيضاء يوم تباله ومخينة النعمان حيث تنصراً<sup>(٣٠)</sup>

ونجد النابغة الذبياني أيضاً يقسم بالله الذي يحج له، والذي يحمي طير مكة، كما يقسم في الوقت نفسه بما يراق على النصب أو الأصنام من دماء العاتر المقدسة لآلهة الأوثان<sup>(٣١)</sup>،

فلا لعمري الذي قد زرته حججاً وما هريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير تمسخها ركباًن مكة بين الغيل والسند<sup>(٣٢)</sup>

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذا فلا رفعت سوطي إلي يدي

ويشير أوس بن حجر إلى ما يعتقد المشركون من أن الله رب الألهة، وذلك في قوله<sup>(٣٣)</sup>،

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله، إن الله منهم أكبر

إذا فالإنسان العربي، على الرغم من تنوع الديانات حوله قد اعتقد في وجود الله تعالى، وظهر هذا الاعتقاد أكثر جلاء ووضوحاً في رؤيته لمقدرة الله الفاتكة، وتلك الرؤية عبر عنها في شعره، وبرز معظمها في ذكره لثواب الله وعقابه، وفي تسليمه لمشيئته وإرادته.

### ● أولا الثواب :

إن من أهم مظاهر مقدرة الله لدى الجاهلي هو ما يمنحه للإنسان من خير، وهو ما يضي عليه من إحسان، وغالباً ما يكون ذلك ثواباً من الله لفعل حسن أو عمل خير قدمها للآخرين، ولهذا وجدنا كثيراً من الشعراء في مديحهم خاصة، يتوجهون إلى الله طالبين منه أن يجزي من أحسنوا إليهم خير الجزاء، جاعلاً حياتهم أرشد حياة وأنعمها.

فمن ذلك ما مدح به عروة بن الورد مالك بن حمار القزاري، سائلاً الله أن يحسن إليه، وأن يدر عليه الخير الوفير والرزق العميم، لما بدا منه من شجاعة وحماية في الدفاع عنه<sup>(٣٤)</sup>،

جزى الله خيراً، كلما ذكر اسمه، أبا مالك إن ذلك الحي أضعدوا<sup>(٢٥)</sup>  
 وزود خيراً مالكا إن مالكا له ردة فينا إذا القوم زهد  
 وكذلك طلب قيس بن الخطيم من الله أن يجزي ممدوحه خير الجزاء لمطائهم الوفير،  
 وسجاياهم الفاضلة<sup>(٢٦)</sup>،

جزاهم الله عنا أينما ذكروا لدى المكارم إذ عُدَّتْ بها التَّعَمُّ  
 وكان زهير بن أبي سلمى يرى أن الله يمتحن الإنسان بالخير، ويغدق عليه بالتَّعَمُّ، لذلك  
 طلب منه أن يبلو خير البلاء كلاً من هُرم بن سنان والحارث بن عوف، لما قاما به من  
 الصلح بين عيس وذبيان في حربهم الطاحنة<sup>(٢٧)</sup>،

رأى الله بالإحسان ما فعلا بهم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو  
 ويبين لنا الشعر في بعض جوانبه أن الإنسان العربي كان يرى أن ثواب الله قد يتمثل  
 في أشكال مختلفة، كأن يرفع الله الفرد إلى مكانة عالية ومرتبة رفيعة في الحياة، وهذا ما رآه  
 النابغة في التَّعَمُّ بن المنذر<sup>(٢٨)</sup>،

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملك دونها يتذبذبُ  
 فإنك شمسٌ والملوك كواكبُ\* إذا طلعت لم يندُ منهن كوكبُ  
 وهذا أيضاً ما طلبه مَنَاسُ العائذي من الله في ممدوحه<sup>(٢٩)</sup>،

إذا وضع الهزاهرُ آلَ قسومٍ فزاد الله الكمُ ارتفاعاً<sup>(٣٠)</sup>  
 وقد يكون الثواب إطالة الله لحياة الإنسان، فيمد عمره كي يبقى خيره دائماً وعطاؤه  
 مستمراً، كما رغب في ذلك النابغة الذبياني للتَّعَمُّ بن المنذر حين سمع بمرضه<sup>(٣١)</sup>،

ونحن لديه نسأل الله خُلْدَهُ يَرُدُّ لنا مَلِكاً وللأرض عامراً  
 وقد يبدو ثواب الإنسان، في رأي الشاعر، متمثلاً في دفاعه عن الناس وحمايتهم،  
 ولهذا اعتمد أوس بن حجر على رعاية الله وحفظه له مما قد يصادفه من أذى خصومه  
 وأعدائه<sup>(٣٢)</sup>،

فإن يهو أقوامٌ رذائٍ فإنما يقيني الإله ما وقى وأصادفُ  
 وكذلك اعتقد ذو الإصبع العدواني أن ثوابه عند الله، لصبره على أعدائه، هو أن يحميه  
 ويمنعه من كل من يريد به شراً<sup>(٣٣)</sup>،

ولا ترى في غير الصبر منقصةً وما سواه فإن الله يكفيني

ويأخذ ثواب الله لدى بعض الشعراء شكلاً آخر، يُجلى في الرزق الذي يفدق به على من يستحقه من الناس، وهذا ما وجدته النابغة الذبياني جديراً بالنعمان، لذلك طلب من الله أن يرسل إليه غيثاً عميماً ليتبعه رزق وفير<sup>(٢٤)</sup>،

أَلِكُنِّي إِلَى النِّعْمَانِ حَيْثُ لَقِيْتَهُ فَأَهْدِي لَه اللهُ الْغِيُوْثَ الْبَوَاكِرَا

وقد وجد الأعشى أن خير ثواب أنعم الله به هو أن جعل طعامهم في إبلهم دائماً مستمراً<sup>(٢٥)</sup>،

جَعَلَ الْإِلَهَ طَعَامَنَا فِي مَالِنَا رِزْقاً تَضْمَنُهُ لَنَا لَنْ يَنْفَدَا

ومن ذلك نجد أن العربي اعتقد أن الله تعالى يتصف بمقدرة قوية، قادرة على إسباغ أنواع الخير على الإنسان، من إعلاء للمكانة، ومد في العمر، ووقاية وحماية، ورزق وفير، وعطاء دائم.

## ● ثانياً، العقاب :

لا تقتصر مقدرة الله في رأي الإنسان العربي على الثواب والإحسان فقط وإنما تشمل أيضاً العقاب والإساءة، وإذا كان الله في تصور الجاهليين يجزي الناس بالخير فإنه يجزيهم بالشر كذلك، فيعاقب المسيئين، ويخزي الأشقياء، ويصيبهم بأنواع شتى من العقوبات، وقد يصل الأمر إلى إهلاكهم وإفنائهم.

ومن ثم وجدنا الشعراء كثيراً ما يصبون جام غضبهم على أعدائهم وخصومهم، مستعينين بمقدرة الله على مجازاتهم بشر أعمالهم. فمن ذلك أن الحصين بن الحمام طلب من الله أن يعاقب قبيلة بأحيائها جميعاً جزاء أثامها وعقوقها<sup>(٢٦)</sup>،

جَزَى اللهُ أَفْنََاءَ الْعَشِيرَةِ كُلَّهَا بِدَارَةِ مَوْضُوعٍ عَقُوقاً وَمَأْثِمَا

وقريب من هذا ما رغب النابغة في أن يكون جزاء بني عيس من الله كجزاء الكلاب، التي لا يلتقي أحد لها بالاً، وإن ملأت الفضاء غواءً ونباحاً، وذلك حين هجا بني عيس وغيرهم اغترابهم في بني عامر<sup>(٢٧)</sup>،

جَزَى اللهُ عَيْساً فِي الْمَوَاطِنِ كُلَّهَا جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ، وَقَدْ فَعَلَ

فَأَصْبَحْتُمْ، وَاللهُ يَفْعَلُ ذَلِكَمُ، يَمْزُكُمُ مَوْلَى مَوَالِيكُمْ حَجَلُ

وإذا كان الفرد يعتقد أن ثواب الله يتخذ أشكالاً عدة من الإحسان إلى الناس فإنه اعتقد أيضاً أن عقاب الله يتخذ أشكالاً مختلفة من الإساءة إليهم، وقد أبرز الشعر ذلك الاعتقاد وصوره في هجاء الشعراء لخصومهم خاصة.

فقد يكون العقاب متمثلاً في جدد الأذان، فيلقي أصحابها من جراء ذلك ذلاً كبيراً ومهانة شديدة، على نحو ما رآه طرفة بن العبد لائقاً بأعدائه البكرين<sup>(٢٨)</sup>،

أبلغ سراة بني بكر مفلفلةً فجدغ الله من أذانها اليمنا

ولا يكتفي امرؤ القيس من الله بقطع أنوف أعدائه، وإنما يريد منه أيضاً أن يشوه وجوههم ويمرغهم بالأوحال، كيلا تقوم لهم قائمة<sup>(٢٩)</sup>،

ألا قبح الله البراجم كلها وجدغ يربوعاً وعقر دارما<sup>(٣٠)</sup>

وقد يتخذ عقاب الله أحياناً صورة مفزعة، تجعل الإنسان شبيهاً بالحيوان المتوحش، كأن يجعل للأعداء أظفاراً طويلة ثابتة، لا يستطيعون قلعها أو تشذيبها. وهذا ما طلبه عميرة بن جعل لبنى تغلب حين هجأهم<sup>(٣١)</sup>،

كسا الله حسي تغلب بنه وائل من اللوم أظفاراً بطيئاً نصولها

ولعل تلك الأشكال السابقة من عقاب الله كانت تقصد المعنى المجازي لها، وهو إذلال الخصوم وإهانتهم، بيد أن الشاعر النطلق في رسمها من التصور الحسي لها، ذلك التصور الذي يستند إلى اعتقاده في أن الله قادر على جعلها حقيقة واقعة.

وفضلاً عن ذلك يحذر الشاعر الآخرين من عقاب الله، من غير أن يذكر صورة محددة له، وهذا ما يجعله أوقع أثراً في نفوسهم، وكان عنترة بن شداد قد حذر أحدهم عقاباً من هذا القبيل، في حالة إنكاره وجده الإحسان<sup>(٣٢)</sup>،

ولا تكفر التعمى وأثن بفضلها ولا تأمنن ما يُحدث الله في غد

وقد نحا أوس بن حجر نحواً مماثلاً في هجائه لبنى الحارث الذين سرقوا سوامه، واقتسموها فيما بينهم، وراحوا يقدمون لها أردأ العلف وأخبثه، مدة عام كامل، فقال فيهم<sup>(٣٣)</sup>،

ولو كان حولي من تميم عصابة لما كان مالي فيكم متقسماً  
ألا تتقون الله إذ تعلقونها رضيع النوى والفض حولاً مجزماً

وإذا كانت مقدرة الله كذلك فليس أمون من أن يهلك الأعداء ويبيدهم، ولا يدع لهم أثراً باقياً، فيكون ذلك عقاباً ما بعده من عقاب. وهذا ما تحقق للأعشى في خصومه، إذ يقول فيما حل بهم وبمنازلهم<sup>(١٤)</sup>،

وعلمت أن الله غفٌ — بدأ حسها وأرى بها<sup>(١٥)</sup>

لقد أوضح لنا الشعر السابق أن كثيراً من الأفراد اعتقدوا في قوة الله وقدرته على عقاب الناس عقاباً متنوعاً، يحمل الضر إليهم، وقد يهلكهم ويفنيهم فناء تاماً، وقد وجدنا الشعراء اتخذوا من هذا الاعتقاد مادة في هجائهم لأعدائهم والتَّيْل من خصومهم.

### ● ثالثاً . المشيئة

ترينا أشعار كثيرة أن مقدرة الله، لدى الإنسان، تأخذ حيزها الكبير ومداه الواسع فيما يعزو إليه من سيطرة على الناس والتحكم فيهم، إذ يبدو الله، لدى قسم كبير من الشعراء، ذا سلطة عامة شاملة، يخضع لها الكون، ويسير وفقها البشر، متقادين لإرادة الله ومشيئته.

فمن ذلك ما اعتقده ذو الإصبع العدوانى من أن الله جل وعز يملك زمام الدنيا كلها بيده، ويتصرف بها كيفما شاء، حين يقول معاتباً ابن عم له<sup>(١٦)</sup>،

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها — إن كان أغناك عني سوف يفني

وإذا كانت الدنيا كلها في قبضة الله فليس صعباً عليه أن يُقَيِّدَ الجبالَ بحبال، ويأتي بها خاضعة للنعمان بن المنذر، كي يعلن أهلها طاعتهم له، وانتقيادهم لحكمه، بحسب ما رآه المثقب العبدى<sup>(١٧)</sup>،

ولو علم الله الجبالَ غصينه — لجاء بأمراس الجبال يقودها

وعلى هذا فإن الكون كله لله، وما البلاد التي يعيش فيها الناس كادحين من أجل حياة مرفهة إلا بلاد الله، وهذا ما نلمحه في قول عروة بن الورد وهو لا يختلف عن المعتقد الإسلامى<sup>(١٨)</sup>،

وما طالبُ الحاجاتِ في كل وجهةٍ — من الناس إلا من اكجذَ وضُمرا

فسرُ في بلاد الله والتمس الغنى — تعشُ ذا يسارٍ أو تموت فتغذرا

وإرادة الله وقدرته لا تتحكمان في الكون فقط وإنما تتحكمان أيضاً في أفعال الناس، إذ



اعتقد كثير من الأفراد أنهم خاضعون لإرادة الله التي تسير حياتهم وأفعالهم، مما قد يذكرنا بقضية الجبر التي أخذت حيزاً من الجدل والنقاش في المذاهب الإسلامية. بيد أننا لا نجد لدى الشعراء الجاهليين، في هذا المجال، ذلك المنطق في الحجج والبراهين، وكل ما نجده لديهم هو تسليم منهم بأن مشيئة الله هي التي توجه أفعال الناس، تبعاً لما يتصف به من مقدرة عامة شاملة.

ولعل هذا الأمر نفسه هو الذي دفع بعض المشركين إلى شيء من الجدل في احتجاجهم لعبادة الأوثان وإشراكهم بالله، إذ أعلنوا أن مشيئة الله هي التي اقتضت منهم الإشراك، كما تبين ذلك جلياً في قوله تعالى: {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ...} (١٩).

ونستشف اعتقاداً مماثلاً لدى أبي قيس بن الأسلت حين رأى أن إرادة الله هي التي قدرت أن يعتنق الحنيفة وحدها من دون اليهودية أو النصرانية، وذلك فيما روي له من شعر (٥٠):

أربُّ الناس أشياءَ المَثْ	يُلفُ الصمْبُ منها بالذلول
أربُّ الناس أماً إذ ضَلَلْنَا	فيسرُّنا لمعروف السبيل
فلولا ربُّنا كنَّا يهوداً	وما دينُ اليهودِ بذي شكول (٥١)
ولولا ربُّنا كنَّا نصارى	مع الرُّهبان في جبل الجليل
ولكنَّا خلقنا إذ خلقنا	حنيفاً ديننا عن كلِّ جيل

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد في مشيئة الله نجد عدداً من الشعراء يؤكدون أن قوة الله العظيمة هي التي تتحكم فيهم، وتسيرهم حسب إرادتها، حتى إنها لتجعلهم أحياناً يقومون بأعمال لا يريدون القيام بها.

يظهر لنا ذلك جلياً لدى عامر بن الطفيل الذي رأى أن مشيئة الله هي التي جعلتهم يخبرون على قبيلة همدان، على الرغم من أنهم كانوا ينوون الإشارة على قبيلتي نهد وجرم (٥٢):

سرنا نريد بني نهد وإخوتهم جرماً، ولكن أراد الله همدانا

كذلك يعتقد عامر بن الطفيل نفسه أن أفعال الإنسان لا تسير وفق رغبته، وإنما قدرها الله عليه من قبل، فقد يجد في أمر مكروه ما يحبه فيه، وقد يجد في أمر محبوب لديه ما ينفره ويبعده عنه (٥٣):

قضى الله في بعض المكاره للفتى برشد، وفي بعض الهوى ما يحاذر  
وهذا التسليم لمشيئة الله يظهر أيضاً عند قيس بن الخطيم الذي أيقن أن الإنسان لا  
حول له تجاه إرادة الله، إذ قد يرغب في تحقيق آماله وأمانيه بيد أنها قد تتعارض وما كتبه  
الله عليه<sup>(٥٤)</sup>،

يحبُّ المرءُ أن يلقي مُناهَ ويأبى الله إلا ما يشاءُ  
وكان طرفة بن العبد يعتقد أن إرادة الله هي التي جعلته قليل المال، لا عون له يساعده  
ولا نصير لديه يتكل عليه، ولو شاءت لجملته غنياً من الأغنياء أو شريفاً من الشرفاء<sup>(٥٥)</sup>،  
فلو شاء ربِّي كنتُ قيسَ بن خالدٍ ولو شاء ربِّي كنتُ عمرو بن مرثدٍ  
فألفيتُ ذا مالٍ كثيرٍ وعادني بنونٌ كرامٌ سادةٌ لمُسودٍ  
ويوضح لنا الشعر في بعض جوانبه أن مشيئة الله تتحكم في أفعال مختلفة متعددة،  
كأن يذكر الشاعر أنها هي التي جعلتهم ينتصرون في غزوهم، ويعودون فائزين غانمين، على  
حين جعلت أعداءهم فقراء أذلاء.

وهذا ما رآه سلامة بن جندل في شعره، واصفاً ما جلبته قوة خيلهم من غنائم<sup>(٥٦)</sup>،  
كم من فقيرٍ، بإذن الله، قد جبرتُ وذي غنى بُوائتُهُ دارٌ محروبٍ  
وكذلك كان عامر بن الطفيل يعتقد أن الله هو الذي يتحكم في الدهر، في حالتي  
السعادة والشقاء، لهذا يخاطب أحد أعدائه<sup>(٥٧)</sup>،

إنَّ يُمْكِنَ الله من دهرٍ تُساء به تتركُّك وحدك تدعو رهطَ بسطامٍ<sup>(٥٨)</sup>  
وبلغ التسليم بمشيئة الله وإرادته لدى الأعشى مبلغاً دفعه إلى الاعتقاد في أن الناس قد  
خلقوا مجبولين على الفساد، أما هدايتهم وصلاحهم فمرهونان بإرادة الله وقضائه<sup>(٥٩)</sup>،  
إنما نحن كشيءٍ فاسدٍ فإذا أصلحه الله صلحُ

ولعل للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمناخية، التي كان يعيش  
فيها الإنسان العربي، أثراً مهماً في تسليمه بإرادة الله ومشيته، وفي ترسيخ اعتقاده  
أن كل شيء في هذه الدنيا مقدر، ولكن لا راداً لما كتب في السماء<sup>(٦٠)</sup>. كذلك كانت  
تعاليم الديانات حوله تساعد على ذلك الاعتقاد، وخاصة أنها كانت جميعاً تقر  
بوجود الله، وترفع من شأن قدرته.

ويمكننا التنبيه في هذا الأمر أيضاً على الحياة المضطربة التي كانت تحيط بالإنسان العربي، تلك الحياة المحتلثة بالأحداث الخطيرة، بما يجعل المرء معرضاً في كل حين للموت، سواء أكان قتلاً أم جوعاً، فأغلب ظننا أن لهذه الحياة غير الآمنة شأنًا آخر في دفع الإنسان الجاهلي إلى التسليم بأن مقدرة الله هي التي تتحكم في أفعاله، وهي التي تسيّر حياته الحافلة بالمفاجآت..

وهكذا نجد الشعر قد عبر تعبيراً واضحاً عن انقياد الأفراد لمشئته وإرادته، وقد برز ذلك لدى الشعراء في نظراتهم إلى سيطرة الله على الكون وقدرته على توجيه أفعال الإنسان فضلاً عما رأيناه لديهم من اعتقاد في ثواب الله وعقابه، بما يؤكد اطمئنان الإنسان العربي إلى وجود إله كبير فطر الكون والكانات، وعدم انسياقه وراء متاهات البحث عن علة الوجود وعن آلهة أخرى تسيّره وفق أهوائها ورغباتها، شأن كثير من الأفراد لدى الأم القديمة وشعوبها كالإغريق والرومان، على سبيل المثال.

## ● الحواشي والتعليقات ●

- (١) تاريخ الطبري، ٢١٦/١. وانظر الأعراف، الآيات ٦٥ حتى ٧٢. وتفسير ابن كثير، ٢٢٤/٢.
- (٢) تاريخ الطبري، ٢٢٦/١. وانظر الأعراف، الآيات ٧٢ حتى ٧٩. وتفسير ابن كثير، ٢٢٧/٢.
- (٣) تاريخ الطبري، ٢٥٩/١. وانظر البقرة، الآية ١٢٧. الأيتن ٢٦ - ٢٧.
- (٤) التاريخ العربي القديم، ص ٢١١ - ٢١٢. وأبرز هؤلاء الباحثين «نيلسن» و«رينيه ديسو».
- (٥) القاموس المحيط، مادة (إل).
- (٦) الزمر، الآية ٢٣. وتفسير ابن كثير، ٤٥/٤. وانظر تاريخ البقوي، ٢٩٥/١.
- (٧) السيرة النبوية، ٧٧/١. والأصنام، ص ٦. وأخبار مكة، ٦٧/١.
- (٨) لسان العرب، وقاج العروس، مادة (حنف).
- (٩) الديوان، ص ٥١٦. وص ٥١٨. وص ٥٣٨. وانظر المقدمة للمحقق ففيها دراسة مسهبة عن حياة أمية واعتقاده.
- (١٠) السيرة النبوية، ٢٨٤/١. و ٤٣٨/١.
- (١١) المصدر نفسه، ٢٢٧/١. ووردت الآيات. مع اختلاف في الرواية والترتيب في جمهرة نسب قريش، ص ٤١٦. والأغاني، ١٢٥/٣.
- (١٢) تاريخ البقوي، ٢٩٨/١. وانظر عن النصارية في هذا المجال «المفصل في تاريخ العرب»، ٥٩٠/٦.
- (١٣) تاريخ البقوي، ٢٩٨/١. والمفصل في تاريخ العرب، ٥١٧/٦. ويرى غوستاف لوبون أن

- عدم انتشار اليهودية يعود إلى أن اليهود كانوا يمدون الله إلهاً قومياً خاصاً بإسرائيل وقبائلها. انظر اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٦٩.
- (١٤) إذا كان الحنفاء قد وحدوا الله فإن معظم المشركين قد اعتقدوا أن له بنات من الأصنام. انظر الأصنام، ص ١٩. وكان قسم من اليهود يزعمون أن له ابناً هو عزير. كما زعم فريق من النصارى أن المسيح ابن الله. على نحو ما روى ذلك القرآن الكريم. التوبة، الآية ٣. وتفسير ابن كثير، ٢/٣٤٨. وانظر الاختلاف في طبيعة السيد المسيح عند الجاهليين. الفصل في تاريخ العرب، ٦/٦٢٦ وما بعدها.
- (١٥) الديوان، ص ٣٨.
- (١٦) الديوان، ص ١٢٥. وانظر له قصماً كاملاً، ص ١٧٧.
- (١٧) اللج، غدير عند دير هند بنت النعمان. وأراد به الدير نفسه.
- (١٨) الشبيم، القنفذ.
- (١٩) الأصنام، ص ٣٥.
- (٢٠) المروة البيضاء، أراد بها صنم ذي الخلصة. وكان على شكل صخرة بيضاء. بتيالة بين مكة واليمن. ومحبة النعمان، المكان الذي تنصر فيه النعمان بن المنذر.
- (٢١) شرح القصائد العشر، ص ٤٦١.
- (٢٢) أراد بالمؤمن، آل تعالى. يؤمن بالطير بتحريم صيدها. والغيل والسند، موضعان بمكة.
- (٢٣) الديوان، ص ٣٦.
- (٢٤) ص ٤٩.
- (٢٥) أصعدوا، ارتفعوا في البلاد.
- (٢٦) الديوان، ص ١٠٩.
- (٢٧) الديوان، ص.
- (٢٨) الديوان، ص ٧٣ - ٧٤.
- (٢٩) المفضليات، ص ٦٠٨.
- (٣٠) الهزاهز، جمع الهزفة. وهي تحريك البلياء والحروب للناس. والآل، الشخص. وأراد به المكانة.
- (٣١) الديوان، ص ٦٨.
- (٣٢) الديوان، ص ١١٢.
- (٣٣) الديوان، ص ٩١.
- (٣٤) الديوان، ص ٧١.
- (٣٥) الديوان، ص ٢٣١.
- (٣٦) المفضليات، ص ١٠٠.
- (٣٧) الديوان، ص ١٩١.
- (٣٨) الديوان، ص ١٩٨.
- (٣٩) الديوان، ص ١٣٠.
- (٤٠) البراجم ويربوع ودارم، قبائل من تميم.
- (٤١) المفضليات، ص ٥١٨.

- (٤٢) الديوان ، ص ٨٨٢ .  
 (٤٣) الديوان ، ص ١٢٢ .  
 (٤٤) الديوان ، ص ٢٥٧ .  
 (٤٥) حنّها ، استأصلها . وأرى بها ، أي جعل الناس يرون بها ذلك .  
 (٤٦) الديوان ، ص ٩١ .  
 (٤٧) المفضليات ، ص ٣٠٧ .  
 (٤٨) الديوان ، ص ٨٩ .  
 (٤٩) الأنعام ، الآية ١٤٨ . وانظر تفسير ابن كثير ، ١٨٦/٢ .  
 (٥٠) السيرة النبوية ، ٤٣٨/١ . والروض الأذف ، ٧٨/٤ .  
 (٥١) الشكول ، جمع الشكّل . وشكّل الشيء ، مثله .  
 (٥٢) الديوان ، ص ١٣٨ .  
 (٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .  
 (٥٤) الديوان ، ص ٩٨ .  
 (٥٥) شرح القصائد العشر ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .  
 (٥٦) الديوان ، ص ١٠٩ .  
 (٥٧) الديوان ، ص ١٣٣ .  
 (٥٨) بظام ، هو بظام بن قيس بن مسعود الشيباني . أحد فرسان العرب المشهورين في الجاهلية .  
 (٥٩) الديوان ، ص ٢٣٧ .  
 (٦٠) المفصل في تاريخ العرب ، ١٢٢/٦ .

## • المصادر والمراجع •

- القرآن الكريم .  
 - أخبار مكة ، للأزرقي عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ) ط الماجدية . مكة المكرمة ١٣٥٢هـ .  
 - الأستنام ، لابن الكلبي هشام بن محمد (ت ٢٠٦هـ) نج أحمد زكي باشا ط دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .  
 - الأغاني ، لأبي النرج الأصمهاني علي بن الحسين (ت ٢٥٦هـ) ط دار الكتب المصرية ١٩٣٧ .  
 - تاج العروس من جواهر القاموس ، للمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) ط مكتبة الحياة ، بيروت .  
 - تاريخ الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) نج محمد أبو الفضل إبراهيم . ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .  
 - التاريخ العربي القديم ، ديتلف نيلسن وآخرون . ترجمة لؤاد حسنين علي وزكي محمد حسن . ط مكتبة النهضة العربية . القاهرة ١٩٥٨ .  
 - تاريخ البقوبي ، لأحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ) ط دار العراق . بيروت ١٩٥٥ م .

- تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) ط البايي الحلبي، مصر.
- جوهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ)، نج محمود محمد شاكر، ط بيروت ١٣٨١هـ.
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، نج محمد محمد حسين، ط المطبعة النموذجية، القاهرة ١٩٦٠.
- ديوان امرئ القيس، نج د. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
- ديوان أمية بن أبي الصلت، د. عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٧.
- ديوان أوس بن حجر، نج محمد يوسف نجم، ط دار صادر، بيروت ١٩٦٠.
- ديوان ذي الإصبع العدواني، نج محمد علي العدواني ومحمد نايف الدليمي الموصل ١٩٧٣.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح ثعلب أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ) ط الدار القومية، القاهرة ١٩٦٤.
- ديوان سلامة بن جندل، نج د. فخر الدين قباوة، ط المكتبة العربية، حلب ١٩٦٨.
- ديوان طرفة بن العبد، نج علي الجندي، ط مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨.
- ديوان عامر بن الطفيل، رواية محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) ط دار صادر ودار بيروت ١٩٦٣.
- ديوان عدي بن زيد العبادي، نج محمد جبار المعبد، ط دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٥.
- ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) نج د. عبد المعين الملوحي، دمشق ١٩٦٦.
- ديوان عنترة بن شداد، نج محمد سعيد المولوي، ط المكتب الإسلامي، القاهرة ١٩٧٠م.
- ديوان قيس بن الخطيم، نج د. ناصر الدين الأسد، ط دار العروبة، القاهرة ١٩٦٣.
- ديوان النابغة الذبياني، نج د. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط (٢) دار المعارف بمصر ١٩٨٥.
- الروض الأنف، للسهيلى عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١هـ) نج عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٧.
- السيرة النبوية، لابن هشام عبد الملك (ت ٢١٨هـ) نج السقا والأنباري وشلي، البايي الحلبي، مصر ١٩٥٥.
- شرح القصائد العشر، للتبريزي يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) نج د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي، حلب ١٩٧٣م.
- القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ت ٨١٦هـ) البايي الحلبي، القاهرة ١٩٥٢.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ) المطبعة الأميرية، بولاق ١٣٠٠هـ.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ط دار العلم، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد ١٩٧٦.
- المغضليات، للمفضل الضبي (ت ١٧٨هـ) شرح الأنباري (ت ٣٠٤هـ) مطبعة اليسوعيين، بيروت ١٩٢٠.
- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط البايي الحلبي، مصر ١٩٧٠.